

بُؤْح عَمَامَة

قصة الشهيد الشيخ حسن صقر

أمرء النصر والتحرير





بَوَّحُ عِمَامَةِ

قصة الشهيد الشيخ حسن صقر رحمته الله

الكاتب: سعيد أبو نعسة





الإعداد والإخراج الإلكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . العمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ - ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



بُوحُ عِمَامَةِ

● قصة الشهيد: الشيخ حسن صقر (رضوان الله عليه)

● العنوان: بوح عمامة.

● الكاتب: سعيد أبو نعسة.

● من النصوص المشاركة في مسابقة «العلماء الشهداء»

التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب الله

ورعتها مؤسسة الشهيد في لبنان.

● الناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.

● الطبعة: الأولى كانون الأول ٢٠٠٣م - شوال ١٤٢٤هـ.

أمراء النصر والتحرير

قصة الشهيد الشيخ حسن صقر رحمه الله





لماذا يحدث كل هذا؟

أروي قصتي يا شهرزاد!

مالك وللجري وراء القصص الخرافية، في زمن صار

فيه الواقع أغرب من الخيال؟

قصتي نسجت بخيوط من لحم ودم تحت جنح

الظلام.

قصة حمالة أوجه، تستطيعين نبش طياتها وابتداع

قصص كثيرة مثيرة.

لم يُتَح لي أن أقصها على أحد من الأحياء.

قلت: يرويها المقربون!

لم أكن أتوقع عزوف الناس والكتّاب عن سماعها. ربما

كانوا على حق.

فمن تراه يتشوّق لسماع قصّة مبتورة، لا يربطها

بالقصة الأدبية غير الزمان والمكان والخاتمة؟

يصل فيها الرواة إلى الخاتمة مباشرة فيما يشبه

الخبر الصحفي، قافزين فوق الشخصيات والأحداث

التي تصنع الرواية، ضاربين بعنصر التشويق عرض

الحائط، معرضين عن ذكر العقدة التي تحبس الأنفاس

وتحفّز المستمع على طلب الحلّ، مجيبين عن بعض

الأسئلة فقط متجاهلين السؤال الأساس:

لماذا حدث كل هذا؟

ما الذي ساقك إليّ يا شهرزاد بعد ثلاثة عشر عاماً؟
تأخرت كثيراً، كما تأخر حملة الأقلام وعشاق الكلام.
لم تكن قصتي تافهة حتى تعافها وسائل الإعلام، ولم
تكن قصص غيري أكثر تشويقاً حتى يتدافع الصحفيون
لتسجيل دقائقها.

كما ترينني الآن، حيّ أرزق عند ربي مثل أبطال تلك
القصص تماماً، لا القاب، ولا نياشين، ولا صحافة تمجّد
هذا العالم الجليل، وتغمط ذلك العالم المغمور حقّه.

النتيجة كانت واحدة والجوائز متساوية.

قصرّوا جميعاً في حقّي كلّ التقصير. اختلقوا
لأنفسهم المعاذير، وقالوا: قصة تنوء بالمحاذير. ما أشبه
الحرية بالعبودية في زمن يخشى الأحرار فيه سرد
قصة!

التاريخ لا يمحي من صفحة الوجود لمجرد أن يُحجم
الكتاب عن تسجيله. ما دامت أحداثه قد حصلت في
زمان ومكان محدّدين، فقد نحت حروفه في جسد
الحياة. ويبقى الكشف عن حيثياته مسألة وقت فقط.

أعذرهم جميعاً، وأسامحهم جميعاً ولست في معرض
اللوم أو الشكوى. ولكن لا تؤاخذيني يا شهرزاد: دمائي
تستعر منذ ما يربو على دزينة من السنوات، فمن يطفئ
نظاها؟

لست أطلب إلاّ أضعف الإيمان؛ أن تكتب قصة



(هابيل) هذا الزمان! علّ (قابيل) القرن الحادي والعشرين يتّعظ، ويقلع عن ساديّته المستشرية.

أسمع جمعجات الكتاب في كل غثّ وسمين من مواضيع الحياة، ولكن لا أرى طحيناً.

ليس المهم أن تُرعد السماء، الأهم أن يهطل المطر.

أتيت متأخرة! هذا صحيح، لكنه يظل أفضل من عدم المجيء! ستكون سابقة مثيرة ونقله نوعية في عالم السرد: أن تُروى قصة في عالم الأرواح.

ماذا نفعل؟ إذا كان الأحياء لا يكتبون، وإن كتبوا فهم لا يقرأون، وإن قرأوا فهم لا يتدبّرون، وإن تدبّروا فهم لا يفعلون، وإن فعلوا فلعمرك إنّهم لا يغيّرون.

كنت أفكر في اقتحام سكينة أحد الكتاب الأحياء! أن أزوره في منامه لأسرد قصتي، ولكن مجيئك اليوم كفاني مؤونة هذه التجربة.

بارعة أنت في سرد القصص! بها خلصت نفسك من سيف شهريار، وفديت بنات المسلمين.

دكاؤك سيمكّنك من إيصالها إلى الأحياء. كيف ومتى وأين؟ هذا لا يهمّني.

المهم أن يسمعوا قصّتي علّهم يستيقظون: يا سادة يا كرام، اسمعوا وعوا قصة العمامة في عالم يسيطر عليه (العمّ سام).

لا تُفاجأوا بقصرها، فالقصة القصيرة جداً أمست

موضة دارجة في دنيا السرد القصصي. وهذه هي القصة
بإيجاز: (قُتِلْتُ مَظْلُوماً).

. هل أعجبتك هذه القصة يا شهرزاد؟

. لا يمكن لعاقِل أن يفهم قصة مضغوطة مخنوقة في
قمقم غامض، يتوقع النظارة انبجاس مارد مثير من
أحشائه، ويحبسون أنفاسهم تأهباً لرؤيته، وعندما يُفتح
الغطاء تنسلّ منه كلمتان متثائبتان باردتان جافتان:
قُتِلْتُ مَظْلُوماً.

كلمتان تصلحان عنواناً لقصة شيقة، ولكنهما أبعد
ما تكونا عن القصة مهما حاولت إقناعي بموضة القصة
الدارجة، أقصد القصة القصيرة جداً.

والسؤال الذي يؤرقني: لماذا تصرّ على تهشيم بناء
قصّتك واختزال عناصرها على هذه الشاكلة؟

. يبدو أنّك لن تبرحي حتّى تشنّفي أذنيك بسماع
التفاصيل؛ لذا سأصل معك إلى حلّ وسط. رغم عدم
إيماني بهذا النوع الرمادي من الحلول.

سأسرّ إليك بأدقّ التفاصيل، المباح منها والمحرم على
النشر، وسأترك لك حرية شطب ما تريئه محرّجا منها
حتى تغدو ملائمة للمرحلة ومتناغمة مع الظروف،
ولكن عليك أن تتحملي العواقب التي أهونها: إعراض
السامعين عن القصة وتناؤبهم.

وأفزعها: صفع الحائط بها شتم كاتبها.

ستقولين: لا يجوز الشتم واللعن!

نعم، لا يجوز أن إلا عند قراءة قصة مشفرة، يتجاذبها الغموض والترميز، وينشأ فيها مقص الرقيب شفرته النهمتين. مقص يحمله الراوي هذه المرة، فهو الذي نصب نفسه رقيباً على نصه.

إذا أنت الآن أمام الراوي الرقيب، يعني: أنا.

سأروي القصة بحدافيرها وسأضع الكلمات التي أعملت فيها مبضعي بين قوسين فارغين إلا من النقاط، وسأهمس في أذنك كلما وصلت إلى كلمة منها، فما رأيك؟

- إبدأ بالسرد وخلصني وقد مططت المقدمة حتى

ترهلت وأصابتنني بالنعاس وأكاد أغفو كشهريار.

- كان الصيف، وآب اللهب يشوي البقاع بجمرته

الأخيرة، لافحاً الجماهير المكتظة لسماع وقائع الملحمة

الحسينية بسهام تماهت فيها حرارة الشمس بحرارة

عاشوراء.

وكنت أحرص على قضاء إجازتي السنوية بين الأهل

والأحباب في البقاع، ألون أيامها بنفحات إيمان، يتجدد

من خلالها العزم على الجد والمثابرة قبل العودة إلى

(قم). عهد قطعته على نفسي أمام (زيتا).

آه! يا شهرزاد لو تكحلين عينيك برؤيتها. قرية لا

كالقري، منسية عند آخر حدود الحرمان. جميلة وادعة،



ترسل سهام عينيها نحو (وادي العاصي) وتُشرب خديها
أحمرار الطين الممتد إلى أعماق السهول؛ وتسند رأسها
إلى الجبال الشمّ مستمدة عزمها من عناد الصخور.
زوريها وأنا أضمن لك الفوز بالمئات من القصص.
قالت لي (زيتا): «لا استحضار لذكرى عاشوراء إلا من
خلال صوتك».

فقلت: «لبيك يا مسقط رأسي الغالي».
كيف أخضر عهد قرية نالت من الأهمال جلّه ومن
العناء كلّهُ؟ أبت هذه القرية رغم سنابك الفقر
والحرمان إلا التمسك بأهداب الإيمان والتقوى، فما
كنت أطرب فيها إلا إلى صوت الأذان يتجاوب بين
جنباتها وإلى نشيج الباكين في المجالس المباركة. ولكم
سألت والدي. وكنت طفلاً بعد. عن سرّ الدموع تغسل
وجنات الشيوخ والشباب قبل وجنات العجائز والصبايا.
ولم يكن عمري الغضّ يسمح لي بالكثير من الفهم.
ولم أكن قادراً على تشكيل صورة الشخصية الفذة
التي تُروى سيرتها على الدوام وتفتح مأساتها صمامات
الغدد الدمعية حتى بعد مرور مئات السنين، لكنني
ورغم ذلك كلّهُ كنت حريصاً على الاستماع إلى كلّ كلمة
تقال، وإلى كلّ تعليق يندّ عن الحاضرين.
وكنت ببراءة الأطفال أتلقت يمناً ويسرة محاولاً
تقليد الكبار في إتمام الشعائر، حتّى أضحت المجالس



جزءاً من كياني، وسؤالاً محيراً يحفزني على البحث عن جواب شافٍ له.

لم أكن وحدي أمام هذا السؤال فرفيق صباي (ح. ب) كان يشاطرنني الخلجات والتساؤلات.. معاً فككنا الحرف في (زيتا) ومعاً قلّذنا بتلاوة آيات الذكر الحكيم وتجاوزنا على مقاعد الدرس حتى قيل: هذان الطفلان يشكّل كلّ منهما مرآة للآخر.

لم أكن بدعاً من الأطفال، فالمرحلة الابتدائية تهصر التلاميذ في قالب واحد فيبدون متشابهين في الآلام والآمال، والفقر لا يخلو من الحسنات أحياناً.

لكن صورة ذاك الرجل الذي يتكرّر ذكره في المجالس لم تفارق خيالي لحظة واحدة، ولم أترك معلماً إلا وألحفت عليه في طلب المعلومات حول مزايا ذلك المجاهد.. كانوا جميعاً يستغربون لهفتي ويعجبون لرغبتني في اختزال المراحل والوصول إلى المرحلة الثانوية دائماً على حفظ القرآن الكريم تلاوة وتجويداً، دون فرض من أحد أو طمعاً بجائزة.

لم أحرص في حياتي على شيء حرصي على المواظبة على استرجاع السور الكريمة في صلواتي حتى لا تتفلّت من صدري تفلّت الإبل من عقْلِها.

وقد يتبادر إلى ذهنك يا شهرزاد أنني كنت أبتعد عن العلوم الأخرى. العكس هو الصحيح.. تفوّقت في

الشهادة الثانوية على طلاب محافظة البقاع حتى ظنّ الجميع بأنني سأكون مبرزاً في ميدان الطبّ أو الهندسة، ولكنني كنت قد اخترت الطريق، فشددت الرحال برفقة أخي في الله (ح. ب) إلى الحوزة العلمية في (بعلبك).

قد تسارعين إلى القول: هذه سيرة ذاتية لا تعني للقارئ شيئاً. تمهلي ولا تلعبى دور شهریار. مسيرة دراستي قد لا تهمّ أحداً، ولكنها تثبت أن مرحلة الطفولة تشكّل شخصية الإنسان ومستقبله، وليس سراً أن أقول: إنّ شخصيّة شهيد كربلاء عليه السلام قد دمغت دقائق حياتي ببركات سيرته، فكنت أطوي سني الدراسة هاضماً العلوم الشرعية بسرعة أذهلت منشئ الحوزة السيد عباس الموسوي، حتى قال: سيكون لهذا الطالب شأن عظيم.

لا طعم للحياة بلا هدف نبيل يا شهرزاد، وهل في الكون ما هو أنبل من علوم الدين الحنيف؟ وهل يطفئ ظمأي إليها غير الحوزة الشريفة في (قم)؟

لم أتردد لحظة في الالتحاق بحلقات العلم فيها على اختلاف أنواعها. لم تكن الحياة تعني لي غير العلم، فما وجدت إلا متخرجاً على أيدي أساطين الفقه والفلسفة وأصول الدين، ولم أبخل بما حباني الله من علم على طائبيه؛ فأنبريت لتعليم اللغة العربية في مدارس (قم)



وحوزاتها وصرت وجهاً مألوفاً لدى المشرفين على المكتبات العامة والخاصة باحثاً ومنقّباً عن خفايا العلوم وخباياها، حتى اختصرت السنين ونهلت من معين العلم قدراً جعل المجتهدين وأولي العلم يعلنون أهليّتي لمقابلة الإمام الخميني رحمته الله لا من أجل التبارك بظله الشريف والسلام عليه فقط، بل من أجل نيل بركته وهو يتناول العمامة ليضعها بيديه الشريفتين فوق رأسي. لحظة تعدل عمري كلّهُ يا شهرزاد.

قررت بعدها أن أقيم في ربوع (قم) برفقة زوجتي وطفلي. كانت زوجة صابرة تشجّعني على المضي في طلب العلم حتى أعلى المستويات؛ ترضى بالقليل القليل من أجل الفوز بالآخرة، فصارت داعية ناشطة في (قم) تحبّ الإقامة فيها رغم بعدها عن الأهل والأحباب.

كان هذا هو الإطار الزماني والمكاني الأول لقصّتي، فضاء اختصر ربع قرن كان هو الأول والأخير في حياتي وجعلني قاب قوسين أو أدنى من التخرّج برتبة علمية رفيعة ولكن (قدّر الله وما شاء فعل).

هل لمست حتى الآن أي علاقة بين ما سبق ذكره وبين القصة التي اختزلتها سابقاً بكلمتين: قُتِلْتُ مظلوماً؟

لا.

هل شملت من حديثي رائحة انتماء إلى حزب أو

فئة؟

. لا . لم أمس لك انتماء إلا إلى العلم الديني ..
 . هذه الأمانة التي حملتها في صدري وعلى كاهلي
 دفعتمني كما أخبرتك سابقاً إلى زيارة أهلي في (زيتا)
 لإحياء ذكرى عاشوراء فيما بينهم، وكالعادة حللت في
 نهاية شهر آب من عام ١٩٩٠ لهذه الغاية وأمضيت أيام
 عاشوراء ولياليها متنقلاً بين قرى البقاع الغربي وتركزت
 زوجتي وطفلي في ضيافة (زيتا).
 كان مضيبي في تلك القرى صديق طفولتي (ح. ب).
 وكنت أنوي العودة إلى (قم) بعد قراءة مجلس عزاء اليوم
 العاشر، لكن صديقي أصرّ على تمديد إقامتي أسبوعاً
 آخر في ربوعه وألحّ في الطلب.
 انقضى الأسبوع وكان الخميس موعدنا للعودة إلى
 (زيتا) في سيارة أجرة أنا وهو وزوجته وطفلاه.
 كانت زوجتي في (زيتا) تحزم حقائب السفر انتظاراً
 لعودتي يوم الجمعة حاملاً تذاكر السفر بعد تأكيد
 الحجز في بعلبك كي نطير إلى (قم) بعد بضعة أيام.
 يتحتم علينا إذا المبيت في بعلبك ليلة الجمعة،
 فرصة أردناها مناسبة لوداع الأصدقاء.
 كانت سيارة الأجرة تدب فوق الطريق حيناً وتثن
 أحياناً لوقع الحديث الدائر بيني وبين رفيقي (حسن).
 (ب) حول الشخصيات التاريخية التي اغتيلت ظلماً.
 وسألت رفيقي: «لماذا حدث ذلك؟ ترى، هل سأل



(هابيل) نفسه هذا السؤال، حين بسط أخوه (قابيل) يده
لقتله؟

قابيل كان الأكبر سناً، والأكثر زرعاً وغنماً، فلم تباخُلْ
في انتقاء القربان، وجَبَنْت يداه عن الكَرَم؟ لو شَمَّر عن
ساعد العطاء لتقبَّل الله منه قربانه أسوة بأخيه.

لم يفعل.. فضلَّ الحلَّ الأسهل والأقسى، فسوَّتْ له
نفسه قتل أخيه فقتله. ألا يشبه هذا الفعل ما تعارف
عليه أهل زماننا بحرب الإلغاء؟ وهل البشرية من نسل
(قابيل) فقط؟. وسألته أيضاً عن أصحاب الأخدود. هل
رويت لشهريار قصتهم يا شهرزاد؟

ما أبعد (بعلبك) حين تنوين فراقها وما أقربها حين
يسبقك الشوق إليها! أحبَّ هذه المدينة.

زارها سيّد المظلومين رأساً بلا جسد، كان أعلى من
حامليه، يتربّع شامخاً فوق الرمح.
التاريخ يجترُّ (قابيل) في نسخ مكرورة؛ بعضها يرفع
التوراة والانجيل، وبعضها يرفع القرآن فوق حراب
البنادق.

(الشمز) مثلاً ما الذي يفرقه عن (قابيل) غير
اختلاف الحروف والظروف؟ خذي مثلاً، حروفه الثلاثة
(ش. م. ر)، كم يشكّل (الشرّ) منها؟

عجائب اللغة لا تنتهي يا شهرزاد!
احذفي حرفي المدّ من كلمة (شامير) فماذا تقرّأين؟



ولك أن تفتّشي عن كلمات أخرى تؤيد هذا
الاستنتاج.

لم يطل حوارنا داخل السيارة، قطعه مذياع الأخبار
قائلاً: «انتقل إلى رحمة الله تعالى المرجع الديني الكبير
السيد شهاب الدين المرعشي النجفي».

انتابنا الوجوم أسفاً على فقد العالم الحجة وطلبت
إقفال المذياع، ورحت استرجع مع صديقي فضائل الرجل
ومساهماته العلمية الفاعلة.

ربما لو استمعنا إلى ما تبقى من أخبار لعرفنا الكثير
مما يدور حولنا.

(لا يُغني حذر من قدر).

قلت لصاحبي: «يغمرني الشوق لمعانقة بعلبك، هذه
المدينة القرية في آن، الحديثة القديمة في كل آن. مرتع
الجمال وخزان النضال.

لن أغادرها إلى (زيتا) قبل زيارة مقام السيدة
خولة عليها السلام سأعاهدها على أن أحمل دمي في وجه
السيف والحق في وجه الحيف.

ما أعظم الجهاد! فيه يصبح للحياة معنى وللجراح
معنى وللأسر معنى وللشهادة معنى ولكل شيء معنى.

ها هي (بعلبك) تطلّ من بعيد، تفتح ذراعيها
لاستقبالنا كما فتحت قلبها اليوم لاحتضان المحرومين
يحيون ذكرى إمام غيّب قبل دزينة من السنوات. سأقتفي





خطواته. وأخلع ردائي لأصبح فدائياً؛ سأحارب الفتنة
كما فعل، وسأدعو إلى الوحدة كما دعا. لن أجادل في
هوية القائد، سأكون جندياً تحت إمرة أول قائد يندفع
أمامي إلى المعركة.

سأدير خديّ الأيسر لأخي، إن صفعني على خديّ
الأيمن، شرط أن يسلك طريق الحقّ.

سأقول له: في الأرض متّسع لنا جميعاً، خذ الكرسي
إن شئت شرط أن تحسن القيادة والنية واختيار الهدف.
لم يعلّق صديقي بحرف، رأيته يهزّ رأسه موافقاً على
آمالي وأمنيّاتي.

كان صوت أذان المغرب يتردد في جنبات (بعلبك)
عندما وصلنا إلى مدخلها الغربي.

الأحباب كُثُر في (بعلبك)، بيوتهم بيوتنا.
وقع اختيارنا على أقربهم إلى الحيّ الذي سلكننا
الطرق إليه.

كان الظلام قد أطبق على (بعلبك) مشكلاً مع
انقطاع الكهرباء قناعاً أسود مخيفاً حجب معالم
الأشياء، فما عدنا نهتدي إلا بنور مصابيح السيارة.

في طفولتنا كنا نسمع الكبار يتحدثون عن حواجز
طيّارة، ولم نكن نفهم دلالات هذه العبارة؛ فجأة صرخ
السائق بأعلى صوته: حاجز طيار.

صرّت مكابح السيارة صريراً متّصلاً جعل رؤوسنا



ترتطم بالمقاعد الأمامية. استعدنا وضعنا على المقاعد
ففوجئنا بالمسلحين يطوقون السيارة، شاهرين أسلحتهم
في وضع استعداد لإطلاق النار.

قلت في سرّي:

«حاجز مسلّح! وما أكثر الحواجز في بلادي!
وقلت: ربما يبحثون عن مطلوب! وما أكثر المطلوبين
في جرود الحرمان!

إن كانوا يطلبون ثأراً عائلياً، فليس بيننا وبين الناس
إلا المودة والرحمة.

وإن كانوا يقتفون أثر خصم سياسي، فنحن والسياسة
على طرفي نقيض.

طلب العلم غايتنا والقلم سلاحنا الوحيد.
هُويّتنا التي نحملها لا تشير إلا إلى الانتماء إلى
الوطن.

وتذاكر السفر التي بحوزتي تشير إلى قرب المغادرة
إلى (قم)».

هذه المسلّات جعلتنا ثابتي الجنان. نتصرف بثقة
واطمئنان.

- ربما ظنّوا أنكم تحملون الممنوعات!
- إلا هذه يا شهرزاد! ولو وجدوا معنا شيئاً منها
لساومونا على شرائه؛ إلا إذا كانوا يعتبرون العلم من
الممنوعات.



قلت لهم: تمهلوا ولا تتسرّعوا في القول أو الفعل، ألا ترون العمامة على رأسي؟

ما التهمة التي تعاملوننا على أساسها هذه المعاملة؟
فردّ أحدهم بصوت أجشّ: سل عمايتك إذا..
آخر ما كنت أتوقّعه أن تكون العمامة هي المطلوبة!
قام يفتشنا رجل مُقنّع. حركاته الهستيرية السريعة
نمّت عن رغبة في الاستعجال قبل افتضاح الأمر. وشرع
يدفعنا بقوة طالباً منا التقدم بسرعة.

حاولت بلمح البرق استرجاع سيرة حياتي، فلم أعرّ
بين دقائقها على جُرم يحاسب عليه القانون، أو على
إساءة إلى شخص أو هيئة أو فئة؛ ولم يسجّل اسمي إلا
في دائرة النفوس والأمن العام والمدرسة؛ ولم أنتم إلى
حزب أو تنظيم أو حتى جمعية ثقافية أو رياضية.
حقائق جعلتني أمشي واثق الخطوة، مقنعا نفسي
بأن في الأمر إشكالاّ سرعان ما ينجلي؛ أو وشاية كاذبة
سيظهر زيفها عند بدء التحقيق.

لم أرتجف؛ وهل يرتجف البريء يا شهرزاد؟
نعم؛ على ما يبدو، في الشرق فقط، يظلّ المرء
متّهما حتى تثبت براءته.

سألت المسلّح: «لماذا كل هذا؟» فأجابني بركلةٍ قويّة
كادت تطيح بالعمامة وبي؛ وجعلتني أندفع والباب إلى
داخل غرفة التحقيق.

ساورتني الشكوك بعد هذا السلوك الذي لا يتناسب
مع رجال الدين.

لم يعد السؤال الذي يؤرقني: ماذا سيحلّ بنا؟ بل:
لماذا يحدث كلّ هذا؟

أحاط المسلّحون بنا إحاطة السوار بالمعصم، واقتادوا
زوجة صديقي وطفليه إلى مكان قريب، وعاد سائق
سيارة الأجرة إلى (رياق) سالماً، وانتهت القصة يا
شهرزاد.

- هذا الكلام تقوله لغيري. أتريد أن تقطع الحبل وقد
أوصلتني إلى منتصف البئر.

- أضيفي هاتين الكلمتين (قتلت مظلوماً) إلى ما
سبق ذكره، ولنسوف تحصلين على قصة متكاملة،
أيرضيك هذا التملّص الذكي، وذكر الخاتمة التي
تبحثين عنها؟

- لا تعينيني الخاتمة وقد ذكرتها منذ البداية؛ يبدو
أنك ستجعلني أندم على إضاعة الوقت في الاستماع إلى
قصة شوهاء مبعثرة، لا يربطها رابط ولا يضبطها
ضابط؛

قصة هي عبارة عن قصاصات من سيرة ذاتية، لا إثارة
فيها ولا تشويق، تخلو من أهم عناصر القصة الأدبية،
أعني الأحداث المتعاقبة والعقدة التي تؤزّمها والتدرّج
المريح نحو الحلّ أو الخاتمة.





ما الذي يعني القرأ أن يضيفوا إلى معلوماتهم أنك
حفظت كتاب الله عن ظهر قلب؟ الملايين على امتداد
العالم الإسلامي يحفظونه وربما فاقوك أجادة وإتقاناً.

وما المثير في كونك داعية وعبقرياً تخزن في صدرك
العلم النافع وفي قلبك النور الساطع وفي صوتك
الجرس المانع وفي أسلوب قراءتك مجالس العزاء النغم
الجامع؟

كل هذه شهادات تفتخر بها أنت وحدك وهي لا
تضيف الإمتاع إلى القارئ.

الأسئلة الأهم هي: كيف ومتى وأين ولماذا قُتِلتَ
مظلوماً؟ ومن الجاني؟

. كيف معروف؛ أعني ستعرفينه بعد قليل.

وجواب: متى وأين؟ سبقت الإشارة إليه.

أما (مَنْ ولماذا؟) فهما بحاجة إلى الشرح، فلنفصل
الإجابة حتى يهنأ بالـك.

١- مَنْ: هي لغة: اسم موصول بمعنى الذي وهذا يعني
أن شخصاً ما أو أشخاصاً قد نفذوا عملية القتل وهذا
أمر بدهي ولا يختلف عليه اثنان ولكن ما المفيد في
معرفة الجاني وقد صعدت روعي إلى السماء؟
لنقل أنني عرفته، فماذا يعني هذا؟ وهل ستعيدني
هذه المعرفة إلى الحياة الدنيا؟



هل ستسمح لي بمعاشة طفليّ والسكن إلى زوجتي
الحبيبة، أم ستكفكف دموع أبي وأمي وأخوتي؟
إنها معرفة عقيم يا شهرزاد؛ لا تقدّم ولا تؤخّر، فلا
تقلّبي عليّ المواجه.

ليس المهمّ من القاتل، الأهمّ أنني قتلت.
لو فرضنا جدلاً أن نهرأ من الدماء سال انتقاماً
لمقتلي فهل سيغيّر هذا من الأمر شيئاً؟ الدماء كالدموع،
لا تعيد الأحباب الموتى إلى الحياة.

أقدّر أنك واحدة من أفراد أمّتي وأنت لا تختلفين
عنهم في كثير، يهمك أولاً وآخراً أن تعاقبي النتائج ولا
يعنيك البحث عن الأسباب ومعالجة الخلل قبل
الاصطدام بالنتيجة ولكن صدقيني إن جواب (من) لا
يسمن ولا يغني من جوع.

هل عرف الحسين عليه السلام هويّة قاتله؟
أهله عرفوا والزمرة الظالمة عرفت والتاريخ دون ذلك
على آلاف الصفحات ولكن هل كان أبو عبد الله عليه السلام
معنياً بهذا الجواب؟

لم يخرج بأهله طلباً لثأر بل سار بهم لنصرة الحق
ومقارعة الظلم.

فمن الذي كتب التاريخ؟

الحبر أم الدم؟

القاتل أم القتيل؟





الشاهد أم الشهيد؟

دَلِّينِي يَا شَهْرزَادَ عَلَى عِدَدِ الَّذِينَ سَمِعُوا بِالشَّامِرِ بْنِ
ذِي الْجَوْشَنِ ..

أَقْسَمَ غَيْرُ حَانِثٍ، أَنَّهُمْ نَزَرُوا سِيرَ. وَبِالْمُقَابِلِ هَلْ يَحِيطُ
الْعَدُّ بِالْمَلَايِينِ الَّتِي تَلْهَجُ بِذِكْرِ الْإِمَامِ الشَّهِيدِ (عَلَيْهِ السَّلَام) ؟

وَهَلْ يَنْكُرُ عَاقِلٌ مَا أَبْدَعَتْهُ الدِّمَاءُ الزُّكْيَةُ الطَّاهِرَةُ مِنْ
قِصَائِدِ الْبَطُولَةِ وَمَلَا حِمَّ الشَّهَادَةِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ ؟

أَلَمْ تَكُنْ قَطْرَاتِ الدَّمِ النَّازِفَةِ مِنَ الرَّأْسِ الشَّرِيفَةِ
عَلَامَاتٍ عَلَى الطَّرِيقِ، تَهْتَدِي بِهَا الْقَوَافِلُ السَّائِرَةُ نَحْوَ

الثُّورَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَنَحْوَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ ؟

لَا بَدَّ أَنْ تَفْعَلَ الدِّمَاءُ الْمَظْلُومَةَ فَعَلَهَا، نَرَاهُ بَعِيدًا وَيَرَاهُ
التَّارِيخُ قَرِيبًا.

الْمِائَاتُ مِنْ حَفْظَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جُنْدَلُوا فِي سَاحَاتِ

الْوَعَى عِنْدَ انْبِثَاقِ فَجْرِ الدَّعْوَةِ فَهَلْ ذَهَبَتْ دِمَاؤُهُمْ هَدْرًا

؟ أَلَمْ تَشْكَلْ الْمَدَامِيكَ الْأُولَى لَصَرْحِ الْإِسْلَامِ الَّذِي نَنْعَمُ

بِالْإِنْصَوَاءِ تَحْتَ لَوَائِهِ ؟

عُرِفَتْ أَسْمَاءُ الشُّهَدَاءِ آنَذَاكَ، فَهَلْ ذَكَرَ التَّارِيخُ أَسْمَاءَ

الْقَتْلَةِ

عَلَى أَيِّ حَالٍ سَأَسْرُ إِلَيْكَ بِاسْمِ قَاتِلِي، إِنَّهُ (...) هَلْ

ارْتَحَتِ الْآنَ ؟

أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ، هَلْ أَضَافُ اسْمَ الْقَاتِلِ جَدِيدًا إِلَى

مَعْلُومَاتِكَ أَوْ مَشَاعِرِكَ ؟



ربما لو شرحتُ لك الظروف المرافقة لاغتيالي
لاستنتجت العبر ولركمت هذه المشاهد المثيرة إلى
التجربة الإنسانية علّ الأجيال القادمة تتعظ وتقلع عن
الشرّ والجريمة...

ولكن الإنسان هو الإنسان، ينسى على الدوام وينقلب
بين طرفة عين وانتباهتها إلى وحش بحسب تقلّب
الأمزجة والمصالح.. والأمثلة في التاريخ تجلّ عن
الحصر.

٢. بقي السؤال العويص: (لماذا؟)

إنه سؤال منطقيّ ومبرّر، يخفي في طيّاته لازمة لن
تملّها الأسماع: لمَ حدث كل هذا؟

حين لم أجد مبرراً واحداً لما أقدم عليه المسلّحون
أيقنت أن تهمتي الوحيدة هي هذه العمامة.

ما الذي تقرأينه في لائحة الاتهام هذه يا شهرزاد؟
أليس مثيراً للعجب أن أقف أمام رجل مُسلّح، يلعب
دور القاضي والجلّاد في لحظة واحدة؟

يقول لي: تهمتك ملفوفة فوق رأسك!
لماذا لم تطلب منه التوضيح، ولم تُخرج له تذاكر
السفر، هل عجزت عن الدفاع عن نفسك؟
أتظنّين أنّ الجلّاد يضيع وقته الثمين في الاستماع
إلى ثرثرات من صدر الحكم بحقه؟



هكذا، بكل بساطة انعقدت المحكمة على قارعة الطريق، وقادنا الجلاّد إلى سيّده كي يتلقّى منه الأمر بتنفيذ الحكم دون أن يسألنا عن أسمائنا أو أن يطلب ما يثبت شخصياتنا.

- أمر غريب حقاً!

- لا غرابة في الأمر؛ لم يعد في عالمنا ما يُستغرب!

- ألم يتحرك أحد لنجدتكم؟

- أمام جلاّد كهذا، لا يجرؤ الناس العزّل على فتح

أفواههم؛ أو تطلبين من البسطاء أن يلعبوا دور (الحرّ

الرياحي) وهم لا يفقهون شيئاً مما يدور حولهم؟!

التاريخ يعيد نفسه، والعمائم تحشر في قفص

الاتهام. وحين تُسأل عن التهمة،

يقال لها: تماهت التهمة بالعمامة، فصارت إحداهما

تعني الأخرى.

- أين أهل الحلّ والربط؟ أليس في الحيّ رجل رشيد؟

- فأتك أن الظلام كان دامساً، وأن الناس يأوون إلى

منازلهم عند الغروب في بلد لم ينزع منه فتيل الحرب،

ولا يتعامل أهله إلاّ بلغة السلاح. غاب عنك أن وقائع

إلقاء القبض علينا وإجراء المحاكمة وإصدار الحكم لم

تتعدّ دقائق معدودات.

عندها اختلف الوضع، لم نعد نسأل عن السبب، صار

التفكير في المصير هو سيّد الموقف.



قطع صديقي حبل المهاترات، طالبا من المسؤول
السماح لنا بتأدية الصلاة.

كان جواب المسؤول مقتضياً: بعد قليل.

تكرّر الطلب ثلاثاً، وجاء الردّ تسويقياً: بعد قليل.

تنحنحت معلنا الرغبة في الكلام: يا أخي نحن
مازلنا طلبة علم ولا علاقة لنا باللغظ الدائر حولنا وما
يخترنه من تُهم لا تمت إلينا بصلة لا من قريب ولا من
بعيد.

لم يعلّق المسؤول بحرف؛ شغلّه الهرج والمرج المتلاطم
في الخارج ولم نسمع إلا التهديد بتصفيتنا.

لو سمعتُ هذه الكلمة في معتقل الخيام لفهمت
الدافع إلى قولها، ولو سمعتها في سجن (عسقلان) لما
استهجنتها؛ ولكنني أسمعها في (...) بين أهلي وأبناء
عمومتي، فكيف أفهماها؟

أأصدّق ما سمعت أم أدرجه في خانة الحرب النفسية؟
(التصفية) هذه الكلمة الجديدة في قاموس الإبادة،
ما أبلغها في الدلالة على إحكام القتل حتى نقطة الدم
الآخيرة.

ما الشاعر التي تنتاب الإنسان وهو يستمع إلى
الجلاد يقرّر تصفيته؟

. ينخلع قلبه وتصكّ ركبته وينهار أرضاً، وربما أسلم
الروح رعباً.



هَذَا قَدْ يَحْدُثُ لِمَجْرَمٍ عَادِي صَدَرَ بِحَقِّهِ حُكْمٌ
بِالْإِعْدَامِ؛ أَمَّا مَنْ يَقَرُّرُ الْجَلَادَ تَصْفِيَتَهُ لَتَهْمَةٍ تَتَرَبَّعُ فَوْقَ
رَأْسِهِ عَلَى شَكْلِ عِمَامَةٍ، فَالْتَصْفِيَةُ لَا تَعْدُو أَمَامَهُ أَكْثَرَ
مِنْ اِحْتِمَالِ مَشْكُوكٍ بِتَنْفِيْذِهِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ.

أَصْدَقُكَ الْقَوْلُ يَا شَهْرَزَادَ:

إِنَّ شَرِيْطَ ذِكْرِيَّاتِي الْمَسْجَلَّ عَلَى مَدَى رِبْعِ قَرْنٍ قَدْ مَرَّ
أَمَامِي فِي لَحَةٍ وَجِيْزَةٍ، يَخْتَزِنُ (زَيْتًا) مَدْرَجَ طِفْوَلةٍ
وَمَلْهُى صَبَاً، وَمَقْعَدَ دِرَاسَةٍ وَقِبْلَاتٍ أُمٍّ، كَانَتْ تَنْتَظِرُ
عَوْدَتِي كَيْ تَعَانِقْنِي قَبْلَ الرِّحِيلِ إِلَى (قَم).

أَذْكُرُ جَمْلَةً قَالَتْهَا لِي: «كُلُّ النِّسَاءِ يُوَدِّعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
الْمُهَاجِرِينَ مَرَّةً، وَأَنَا مَكْتُوبٌ عَلَيَّ أَنْ أُوَدِّعَكَ بَعْدَ كُلِّ
عَاشِرَاءٍ.

تُرَى، مَا نَوْعُ الدَّمْعِ الَّتِي سَتَذْرِفُهَا، إِنْ طَبَّقَ الْمَسْلُوحُونَ
تَهْدِيدَهُمْ بِتَصْفِيَتِنَا؟

مَاذَا سَيَحُلُّ بِرَفِيقَةٍ دَرَبِي وَقُرَّةَ عَيْنِي؟ هَلْ سَتَحْتَمِلُ
الْخَبَرَ؟ كَيْفَ سَتُرَبِّي طِفْلِي الْحَبِيبِينَ؟
لَيْتَنِي أَكْحَلُ نَاضِرِي بِرُؤْيِيَتِهِمْ جَمِيعاً! جَمِيلَةٌ قِبْلَاتُ
الْوُدَاعِ رَغْمَ مَرَارَتِهَا.

كُنْتُ أَعْقِدُ أَمَلاً عَرِيضَةً عَلَى أَبْنِي (مُحَمَّدٍ) رَسَمْتُ لَهُ
مُسْتَقْبَلاً طَافِحاً بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَاتِ الْكَبِيرَةِ.

مَا زَالَ غَضاً، يَتَعَثَّرُ فِي مَشْيِهِ وَفِي نَطْقِ الْكَلَامِ.
وَطِفْلِي الثَّانِي تَرَكْتَهُ يَحْبُو وَيُبَسِّمُ لِي. اسْمُهُ أَيْضاً

(محمد). أعشق هذا الاسم يا شهرزاد وكي أميزه عن أخيه، أضفت إلى اسمه كلمة (جعفر) تيمناً بالإمام عليه السلام.

هو الآن يلهو بلعبته الصغيرة. مسكين، لن يتذكرني إذا ما أدركت اليوم خاتمتي.

صورة والدي تتسمّر أمامي الآن، تضجّ بالبشر والأمل، تفوح منها نصائح ثمينة دأب على إهدائها إليّ، وكلمات فخر ترنّ في أذني على الدوام، يروح يزهو بها أمام سمّاره، معلّقاً على الآمال بحمل المسؤولية والأمانة من بعده.

هو الذي سيحمل مسؤولية عائلتي من بعدي.. سيدرف دموع الفراق كلما احتضن طفليّ.

الماضي يمرّ أمامي الآن: صور رفاق الصبا... زملاء الدراسة... (زيتا)... النبع... البيدر.... (بعلبك)... (قُم)... المساجد... مجالس العزاء... العمامة...

صورّ لعمائم ثلاث استقرّت أمام ناظري، بعد سيل الذكريات: صورة الإمام عليه السلام يضع العمامة على رأسي... صورة السيّد عباس الموسوي يسلمّني شهادة التخرّج من حوزته العلمية...

وصورة ذلك الرجل الذي وقف موقفي هذا قبل قرون. شعرت مثله بعطش شديد، وكان الماء قريباً منّي، لا يفصله عني سوى زجاجة تتربّع فوق المنضدة.





قلت: ماذا لو دخلت الماء في فمي، ودخل المسلحون
لتصفيتنا، وأسلمت الروح قبل النطق بالشهادتين؟
والله لن أضيع الثواني التي تفصلني عن الرفيق
الأعلى في غير الذكر والدعاء.

همس (الشيخ حسن) في أذني مرة ثانية:
. لو لم تؤجل سفرك إلى (قم) كرمي لي لما حدث كل
هذا!

فقلت: لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذن
الله، ثم إن (لو) تفتح عمل الشيطان.
اقترب منّا أزيز الرصاص، وكثر الهرج والصراخ
المتلاطم، وسمعنا المسلحين يتراكمون ساحبين الأقسام
ملقّمين السلاح..

أيقناً ساعتها أن زمام العقل قد انفلت، ولم يعد أحد
قادراً على تهدئة الأمور أو السيطرة عليها، وأن تصفيتنا
أمر محتوم.

استنتاج أكده اندفاع المسؤول من وراء مكتبه إلى
الخارج، واقترب وقع الأقدام المتراكضة نحونا.

قفزنا لا شعورياً وتدافعنا على غير هدى بين الغرف.
كان باب المطبخ مفتوحاً، فتحاشرنا عفويا في جوفه،
ممعنين في الاختباء داخل الحمامات.

كان صديقي (ح. ب) وشاب إيراني آخر الداخلين إلى
المطبخ.

الله وحده ألهم الشاب الإيراني ارتقاء درجات السلم
الحديدي المؤدية إلى سقيفة المطبخ. وبحركة عفوية تبعه
صديقي؛ وما إن لحقت به جبتة داخل السقيفة حتى
كان المسلحون يتصايحون في المطبخ: «إنهم في
الحمامات». كيف أصف لك المشهد يا شهرزاد؟

أبواب الحمامات تلبط بعنف. والرصاص يُزرع في
الأجساد صعوداً ونزولاً.. صراخ يعلو وجراح تئن وأرواح
ترتفع إلى باربيها.

كنت الأقرب إلى الباب فنلت رصاصات محكمة
التسديد في صدري وفي رأسي وتكوّمت على الأرض
جسداً ترفرف الروح فوقه، ترقب جثماننا كانت إلى ثوان
خلت، تسري في أوصاله، تتهادى من ثقبه خيوط
حمراء تجري صوب عمامة قدّر لها أن تصبح قانية.

التفاصيل الأخرى مهمة جداً، لكنني مرغم على
استعمال مقصّي كرقيب كي لا أخرج أحداً. يكفي أن
تعرفي منها أن صديقي (ح. ب) قد نجا بأعجوبة بعد أن
تجرّع كأس الموت مئة مرة.

موقف يبكي الحجر يا شهرزاد، حين عانق صديقي
زوجته وطفليه ورقد في المستشفى للعلاج من انهيار
عصبي ألمّ به ولم يذق للنوم طعماً ليالي وأياما وهو
يتذكرني وقد أمسيت خبراً قصيراً أذيع لمرة واحدة عبر
إذاعة محلية. كان خبراً جافاً أعجف، دون تحليل أو



تعليق ودون استنكار من عدوّ أو من صديق.

كانت زوجتي قد أعدت نفسها لاستقبال (زيتا) وهي
تتقاطر لوداعنا في رحلة اعتيادية نحو (قم)؛ لكن مديح
الأخبار غير المناسبة وصعق (زيتا) حين ذكر اسمي في
عداد الشهداء!

شهق الجميع ولم يصدقوا الخبر وقاموا يجرون في
كل اتجاه بحثا عن وسيلة اتصال بالجهات المختصة. لم
تجد زوجتي من يكفكف دمعها وقد انخرطت (زيتا) كلّها
في البكاء.

تأملت روعي كثيرا يا شهرزاد، وأنا أرى اللوعة تكاد
تجهز على أمي وهي تهصر رأسي البارد كالثلج إلى
صدرها وتغسله بدموعها.

لا يعرف الإنسان مقدار محبة الناس له إلا بعد
انفصال روحه عن جسده.

أنا أيضا كنت أبكي، لكن أمي لم تلاحظ دموعي ولم
تنبه لاحتضاني إياها، وللمرارة التي اجتاحتني وأنا أرى
دموع طفلي تخرج على خدودهما الغضة.

كنت أود أن أقف في الجموع خطيبا، وأن أذكرهم بأن
الموت حق وأنني لست أول المظلومين، ولن أكون آخرهم،
وأنني نلت الشهادة، وأن الجنة تحت أقدام الشهداء
أيضا... ولكنه الموت يا شهرزاد!

ها هي عظامي منثورة في اللحد، تكفنها جبة نخرتها



هوام الأرض دون أن تمسّ بقع الدم التي أبت إلا أن تبقى
شاهدة على المجزرة ولسان حالها يقول:

«فشل الجناة وذهبت ريحهم، وبقيت العمامة».

انظري إليها يا شهرزاد، إنها تعتلي شاهد قبري،
بيضاء ناصعة، يضجّ في طياتها صوت يقول:

«الفتنة أشدّ من القتل».

والآن أدركنا الصباح، ولكنني لن أسكت عن الكلام

المباح!

وأعلم أنك تتساءلين: كيف يروي الشهيد أحداثا

حصلت بعد افتراق روحه عن جسده؟

غاب عنك أنّ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون.

وهذه هي قصّتي من الألف إلى الياء، فهل ستروينها

عني يا شهرزاد؟

- إنها تنطلق فعلاً من الألف إلى الياء مباشرة، لأنها

تقفز فوق الحروف الأخرى؛ قصة ضبابيّة، التعميم هو

سيد الموقف فيها والتعميم أفقدها خصوصيّة الحدث

وواقعته.

على أي حال، لقد قتلتنِي بقصّتك يا (حسن صقر).

- وكيف ذاك؟!

- لأنني إن لم أروها قتلني (شهريار) وإن رويتها قتلني

من قَتَلَك!!!!!!